

فصحة اجتماعية في رسالة

زوجة الأب

مترجمة عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ محمود عزت عرفة



عزيزتي هيلين ...

لا ريب أنك ترتعين البريد في لهفة كل يوم ، على أمل أن يحمل إليك من أبيك خطاباً ؛ بل إنى لأكاد أتخيلك وأنت تسمعين الساعى بنظرة ملؤها الدهشة والألم معاً ، في كل مرة يعضى فيها دون أن يترك لك هذا الخطاب المنشود . ولعل دهشتك ستكون أبلغ حينما تتلقين هذه الرسالة من « زوجة أبيك » . وإنى لأستطيع أن أسمك وأنت تقولين لصديقتك إيدنا :

— أبلغ من تأخير هذه المرأة عليه ألا يخاطبني إلا عن طريقها ؟
على أنى أتمس إليك أن تبادرى بتدارك هذا الوم الذى تعمين فيه ؛ فلم يسألنى أبوك أن أكتب إليك ، بل إنه ليجهل أنى يمشى إليك بهذا الخطاب ؛ ولعله لو عرف لفضب . وهو فى الحقيقة لا يكاد يذكر اسمك أسمى ، من يوم أن عدنا إلى

صادقاً بكلمة السماء ، خالداً بخلود الفضيلة والحق . وحيوية الفكرة فى الفنون — يا والدى — هى دلالتها على زمنها ، وعقلية أصحابها ، وما يوج بأحاسيسهم ، ويضطرب فى ميولهم ، ويختلج فى صدورهم ، ويسير نهضة علومهم وعقليتهم ، ويلايس حقيقة مجتمعهم ، ويرى إلى مثلهم العليا فى مفاتن الجمال ، وروائع الحسن ، وبدائع الفن ، وعحامد الأخلاق ... وحيوية الفن إذا اتسمت آفاقها ، وعظم خطرهما ، بسطت حيويتهما على كل فكرة وأمل وغاية ، وخلعت على صاحبها ، أو الأمة التى فضجت فيها ، لوناً خاصاً يحدد مكانها من عالم الفن ... بل إنها لتجمل صاحبها يبعث روحه فى كل ما يكتسبه من العالم الخارجى ويطبعه بطابعه الخاص ... وهذه هى رسالة الحيوية الحق فى الفن .

قلت : ما أحوجنا — يا بنى — إلى هذه الحيوية ، حتى لا نضرب فى ظلمات التقليد الأعمى لكل ما هو غريب ، من غير أن نعمل التأمل فى أسنابه وغاياته وملابسته لأحوالنا ، ومسايرة لميولنا وأحاسيسنا وهاليدنا .

محمود العيسى

المنزل فألفيناك قد هجرته غضبي . فكل ما أفعله إنما هو بإرادتي ومن محض تفكيرى ... وما أشك فى غريزة حب الاستطلاع ستدفك إلى قراءة كتابي حتى آخر كلمة فيه ؛ فإن من غير المستساغ أن ترسل زوجة أب بخطاب معلول صريح الهجة إلى ابنة زوجها الوحيدة ، ولما تمض على نهاية رحلة الزواج أيام ... ! ولكن ... ماذا أنا قائلة لك ؟ وكيف أوضح موقعي بحيث أستطيع — وحسبى هذا — ألا أزيد الأمور بيني وبينك تعقيداً ؟

إعلمي أولاً أنى لن أتوجه إليك بأدنى لأئمة ؛ بل إنى لأقدر — بمطف بالغ — هذه الإحساسات التى دفعت بك إلى الرحيل ، وأدرك أنك تنظرين إلى العلاقة بين زوجة أب وفتاة متحررة فى التاسعة عشرة من عمرها ، كأمر يصعب الاحتفاظ به ؛ ولو كنت فى موضعك لما وسعنى إلا أن أتمرد مثلك ، ولكن ليس بهذا الأسلوب الذى اسطغنت ... !

واسمحي لى أن أذكرك — وملء نفسى الأسى البالغ والأسف المرير — بأنك قد تصرفت تصرفاً انطوى على أبلغ القسوة وأشد الإهانة لى ولأبيك . وصديقتى حين أقول لك إنى لا أشكو مما أصابنى شخصياً ؛ فقد كان عملك لطمعة موجهة لى ، ولكنها كانت أشد ما يكون وقماً على والدك المسكين ... لقد أمضه الألم وأرمضه الحزن حتى لاذ بالصمت ؛ وبالتالي وجدتني متأللة لأله ...

وأعترف لك بأنى لم أكن أتوقع منك تصرفاً فجائياً مؤلماً كهذا . فى مرحلة تعارفنا الأولى كانت تربطنا مودة صادقة ؛ ولما بدا احتمال اتصالنا برباط أوثق عن طريق أبيك ، استحبال إخلاصك وثقتك السابقان إلى نفور مزاجه التأدب والتحفظ ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً ...

ولقد بدا لى أنى أستطيع متى أظننا سقوف بيت واحد ،

أن أحملك تفهمين مقصدي وحقيقة شعورى كنت ولا أزال أحبك كثيراً ؛ أحبك لشخصك ثم لأنك ابنة « أبيك » ! ولقد شجعتنى تصرفك قبل الخطبة وبمدها على الأمل فى أن أحل وإياك المشكلة التى طالما سببت المتاعب للأسر جميعاً ؛ مشكلة العلاقة بين الأبناء وزوجات الأب . وعلى هذا الأمل قضيت « شهر السبل » فى وافر من النبطة والسعادة . ولكن ... أى استقبال هذا الذى أعدته لى !

ليتكم تعلمين يا هيلين كم كان أبوك يشتاق إلى لقاءك طوال مدة رحلتنا !

لم ترك في انتظارنا على المحطة كما كنا نتوقع . قلنا : حسناً ، إنك في المنزل بلا ريب ترقبين عودتنا ؛ وقد أعددت لنا عشاء شهياً ينسينا مشقة سفرنا الطويل . ولما اقتربنا ففرس أبوك في نوافذ المنزل علّه يراك ؛ ولكننا لم نلمح غير السجوف المرخاة في عناية ، وأطراف هذه الستائر الفرنسية التي شذبتها يدك منذ عام . واخترق والدك الممر وثباً . ثم فتح الباب بمفتاحه الخاص وهو يهتف في قلق :

هيلين ، هيلين ... أين أنت ؟ ...

وانفتح أحد الأبواب ، وأطلت منه الخادم وعلى وجهها سمات الذعر ؛ فبادرها بالسؤال : أين مس هيلين ؟ ...

وكانت الحقيقة أدور من أن تعترف بها الفتاة ، فاضطربت وهي تنعم بأنها لا تدري ... ثم انزوت عن وجهه سريعاً .

أسرع أبوك إلى غرفتك « الاستديو » وفتح بابها ؛ فدلّه المنظر الذي أمامه على ما حدث بآتم وضوح . كان كل ما يخصك أو يهمك في الحجرة قد اختفى ، فلم يكن يتقصه - ليصرف ما صنعت - أن يقرأ هذه الرقعة التي تركها علي رف الموقد بعد أن خططت عليها كلمتك القسيرة :

« لقد انتقلت عن هذا البيت لأقيم مع صديقتي إيدنا كوري » ومع ذلك فقد أطلال أبوك التحديق في هذه الوريقة وهو يوليني ظهره ، ثم استدار إلى بعد حين فالتفت أعيننا وأعتقد أننا تبادلنا في هذه اللحظة كل ما نستطيع التعبير عنه بالكلام

وأخيراً مس ذراعي بيده مترقفاً وهو يقول : تستطيعين أن تهينى لنا طعامنا الآن ... كان يتكلف المكدوء ويتظاهر بعدم البالاء ؛ فمجلت بالانصراف من أمامه قبل أن يتبين في وجهي أنني أدرك حقيقة شعوره . وعند ما التقينا بعد ذلك على مائدة الطعام كان يتصرف كما لو أن شيئاً هاماً لم يحدث ؛ ولقد جاريته في رغبته ؛ ولم يكن يتسنى إلا للثلى ومثلث ممن يعرف خبايا نفسه أن يلحظ هذا الألم الذي يعصف في صدره . ولاني لواتقة من أن أباك لن يلتبس إليك العودة بحال ؛ وأنت التي ورثت كبرياءه تذركين لم لا يفعل ذلك . أما من جهتي ، فلن أطلب إليك شيئاً كهذا العلى أن أسير ملتصق من جوابه الرفض . وإنما سأخطبك في وضوح . وسأحاول أن أبين لك أن زوجة الأب على رغم سميتها السيئة تستطيع أن تكون أحياناً صادقة الرغبة في قهر وجه

نظر ابنة زوجها ، بل هي قد تقبل التضحية البالغة من جانبها في سبيل أن تحيى السعادة على الجميع . وما خطابي هذا إلا دليل ملموس على ذلك . قد لا تفهم فتاة مثلك لماذا يرغب أبوها في الزواج مرة أخرى ؛ ويبدو لها طلب أبيها لزوجة جديدة أمراً شاذاً غريباً كما لو راحت هي تلتبس لنفسها أمماً أخرى ؛ وهي ترى أن كائنات من كان لا يستطيع أن يملأ الفراغ الذي خلفته أمها ؛ وبالتالي لا تكاد تصدق بوجود المرأة التي تملأ من أبيها فراغ الزوجة . ومن المشاهد أن تطفل امرأة أخرى - بعد ذهاب الأولى - من الأمور غير المرغوب فيها ؛ حتى ولو كانت الأولى قد قصرت في أداء مهمتها كزوجة أو أم . فكيف يكون الحال مع امرأة فضلى كأملك جديدة بكل حب من زوجها وطفلها ؟ لا ريب أن موضعها سيبقى شاعراً إلى الأبد ... لست أطلبك بأن تنظري إلى المسألة كما أنظر إليها ، أو تضي في ذهنك أن أباك هو أول من أحببت ، وأنه عند ما سألتني الاقتران به أحسست بسعادة لم أكن أحلم بها . فستقولين - وأنت محقة - إن هذه أمور لا تمينك في شيء ؛ وعليه فلنجعل الأساس المشترك بيننا سعادة والدك ، فعند هذه النقطة قد يلتقي سهمانا ... ولو أنك فكرت في الأمر قليلاً لوجدت أن مزايا والدتك وفضائلها ، هي التي لجأت أباك إلى الزواج مرة أخرى . وقد يبدو لك هذا الكلام متناقضاً أو قائماً على الوهم ؛ ولكنه في الواقع ينطوي على نتيجة طبيعية بفضي إليها منطق مستقيم . فإن الزواج إذا انفصمت عروته بالموت يترك من الفراغ والوحشة بقدر ما حقق من سعادة ونعيم ...

وأنت نفسك - لن تستطيعي الادعاء بأن حبك لوالدك بعد وفاة أمك ، قد شغل أكثر من ركن صغير ، وصغير جداً ، من هذا الفراغ الذي خلفته وفاتها ؛ وكذلك الحال مع الأب ، فحبه لطفله إلا تنمة حبه لزوجه . والعلاقة بين الأب وابنته تختلف - كما وكيفاً - عن علاقة الزوج بزوجه . وأنا لست أدعي في لحظة ما أنني قد ملأت هذا الفراغ تماماً ؛ ولكنني أردت صادقة أنني اكتسبت محبة أبيك وفتته ، وأنى أسعدته بحبي له سعادة لم يكن لينالها - على الأقل - بتبر حب المرأة ...

وما إخالك تنكرين أنه قد اختارني بمحض إرادته ؛ وليس لجرد دافع يسير ، بل لحاجة ماسة إلى تجديد هذه العلاقة الوثيقة التي انقضت بموت والدك . فإذا أنت أدتيني فقد أدت أباك ،

وبحكمك هذا يبدو مبلغ قصورك في إدراك حقيقة الطبايع البشرية وقد تبدو نظريتك معقولة من فتاة غير متزوجة تقيض نفسها بالوفاء الخالص والطيبة الساذجة ، ولكن لن يقاسمك هذه النظرة أي رجل أو امرأة ممن خبر الحياة وعرفها على حقيقتها .
والآن ... دعيني أقدم بك خطوة أخرى :

لا بد لك أن تسلي - إن عاجلاً أو آجلاً - بأن أباك هو صاحب الحق المطلق في تقدير قيمة هذا الزواج الأخير الذي ارتبط به ؛ ولكنك قد تحتجبن بأن هذا التسليم لن يغير شيئاً من شعورك بحوى . ولعل لا أكون مخطئة إذا قلت إنك قد قلبت هذه المسألة من جميع وجوها مع صديقتك « إيدنا » فزمت لحالك وأقرنتك على موقفك . وإني لأستطيع - متى شئت - أن أسرد عليك كل ما دار بينكما من حديث ؛ أو بالأحرى كل ما أفته من « حجة » وعقب عليه من « تأييد » . وأنا واثقة من أنك قد قلت الشيء الكثير مما كنت أقوله لو كنت في مثل هذا الموقف . كنت أقول إنني أطلب حياة مستقلة لا تعترض سبيلي فيها امرأة أخرى كاتمة من كانت ؛ وكنت أذكر مبلغ حنفي إلى هذه المعبشة الحرة التي أنفقت فيها عاىً الأخيرين ، أغدو وأروح في حرية تامة ، وأختار أصدقائي وفق ما أشتغي ، وأدبر شئون بيتي بأسلوبى الخاص ؛ مستمتعة بهوايتي ، أرسم حيث أريد ومتى أشاء ؛ أنقض أوقات فراغى في خمول إن أحببت ، أو أدعو أصدقائي إلى تناول الشاي والرقص والحفلات التثيلية الخاصة ، آخذة من كل متعة بنصيب دون أن أجد من يعترض سبيلى أو يقول كلا ... لست أرى لك ذلك يا عزيزتى .

كنت أرفض رفضاً باتاً كل تدخل - أو تهديد بالتدخل - بينى وبين هذه الحرية النفسية ؛ وكنت أرى بالبداهة أن دخول زوجة الأب المنزل إنما هو قضاء عاجل محتوم على كل هذه الناعم والملاذ ...

ألم أصور لك نفسك في جلاء ؟ ... ألم تقولى كل هذا لصديقتك إيدنا فدعتك إلى هجر بيت أبيك والإقامة معها : ترسمين بـ « الباستيل » كما نتهين ، وتكتب هى القصص القصيرة على طريقة « موبسان » ؛ ذن ضيان حياة بوهيمية رائعة ؟ ... لست متيقنة من قدرتى على إقناعك بالخطأ الذى بنيت عليه هذا القرار المفاجيء بالرحيل عنا ، وهذا مما يزيدنى شفقة عليك وعطفاً . قلت لك إنك أخطأت في الحكم على ، وسأوضح لك ذلك الآن

فإن مما يؤلنى كثيراً أنك لم تقدرى صعوبة تلك المهمة التى تكفلت بها ، ولم تعاملينى معاملة تدل على تقديرك لمشاعر المرأة التى تخيرها أبوك زوجة له . كنت قد وطلت نفسى - متى أظلت وإياك سقف بيت واحد - على أن أترك الأمور تسير فى مجراها ما وسعنى ذلك ؛ فلا أنعرض لك فى شيء ولا أحول بينك وبين تحقيق رغبة ... كنت قد وطلت عزيمتى على أن أعاملك كما أعامل أختاً لى صغيرة ، على أن أتحلى - مع ذلك - عن حق الأخت الكبرى فى التوجيه وإسداء النصيح ، ما لم تطلبى إلى شيئاً من هذا . بل كان يرصينى أن تقوى على شئون المنزل دونى إذا سرك هذا وأرضى أباك ؛ وأنت تعلمين مبلغ تضجيتى فى ذلك ، لأنك تدركين كما أدرك كبرياء المرأة وشدة اعزازها بالسيطرة على مرافق بيتها . لم أكن أريد أن أتزع شيئاً من اختصاصاتك إلا ما أوجبه لى حق الزوجية ، من ألا تحتفظى بأبيك خالصاً لك من دونى ا

ولقد ساع لى هذا التفكير لأنى أقرب فى نشأتى من أبناء جيلك منى إلى أهل الجيل الماضى ؛ فانا متوسطة بين الجيلين ، ولست متقدمة فى السن كما قد تصورين يا عزيزتى هيلين . ولقد ربيت منذ طفولتى على هذه الحرية التى تدوّقت أنت حلواتها ، ولكنى تخلت عن كل ذلك لأبيك وأنا راضية مختارة لأن نعمة فى الحياة ما هو أتمن من الحرية ؛ وإنى لأرجو لك أن تتخلى مثلى عن حريتك ، فى اليوم الذى يلقاك فيه من يستأهل منك هذه التضحية ...

شكواى أولاً وأخيراً أنك حكمت علىّ قبل التجربة ، وجعلتنى هدفاً لهذا التحامل الذى منيت به « زوجات الآباء » منذ بدأت الحياة ا

وأنا لا أود أن تطول بنا هذه الحال ، وأعترف لك بأن حجرة رسمك المهجورة ومخدعك الخالى قد أو حشا بعدك وحشة لا يسمنى التعبير عنها . أما تأثير ذلك على أبيك فإنى أترك لك تقديره . وإذا كان يهيك أن تتأكدى من مبلغ صدق وصراحتى فى كل ما ذكرته لك ، فاشك فى أنك تمنحني الفرصة التى أدلل لك فيها على ذلك ؛ وكل ما أتمناه أن تنزع ثوب (التحامل) وتعودى - ولو إلى فترة محدودة - حتى يتبين لك كل شيء . ومن المحتمل أنك لن تتأثرى كثيراً بما أعرضه عليك من صداقتى ، أو لعلك تعدين من الحفاة أن تأمل زوجة الأب - اللفة القاسية - احتلال ركن من قلب ابنة زوجها ؛ وقد يكون كل ما عرضته